مسألة اللفظ والمعنى عند الزمخشري

د. حمدي علي بدوي أحمد (*)

الحمد لله حمد معترف بذنبه، ومقر بوحدانية ربه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه، ومن سلك دربه، وأحيا سنته، وزاد عن أصول دينه من التابعين، وتابعي التابعين.

أما بعدُ:

فتعدُّ قضية اللفظ والمعنى من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إذ شُغل النقاد والبلاغيون العرب بها، منذ عهد مبكر، يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. وكما أنها شغلت حيزًا واضحًا في الدراسات القديمة والحديثة؛ لأن اللغة – كما يقول ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ): " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ". (١) إذ إن قضية اللفظ والمعني تعود إلى فلسفة اللغة، ودلالة الألفاظ على المعاني الموضوعة.

وبدا جهدهم حين أكدوا على أن مبدأ الإفادة هو المبدأ الحاسم في العلاقة بين الدال والمدلول، إذ يُعَد اللفظ والمعني عمودين من أشد أعمدة التواصل اللغوي الإنساني صلابة؛ بوصفهما ذلك الأساس الذى تُبني عليه جسور التواصل في لغتنا العربية، يتم ذلك وفق هندسة دينامية تأليفية، تشُد رباط الأمان في إبقاء المقصود التابع من اللسان (اللفظ) والمستقر في الأذهان (المعني) وإيصالهما وفق حميميةٍ متناغمة، تَرُدُّ المسترذل الضعيف، وتنحرف إلى كل عنصر، يحمل بعدًا فنيًّا وجماليًّا.

و يُؤمِنُ الباحثُ باتِّساع دائرة البحث في قضية اللفظ والمعنى، لتعدد محاورها، وتباين أبعادها، وأن بحثًا كهذا لن يشمها، وكان ينبغي له أن يركز الجهد على محور من محاور تلك القضية المتشعبة، ولكنه آثر تسليط الضوء على القضية في صورتها الكليَّة، من دون تخصيص ولا تفصيل، ليكشف بعض جوانبها.

(*) دكتوراه الدراسات اللغوية والنحوية وعضو وحدة قياس الجودة، والمحاضر التربوي العام بالأكاديمية المهنية للمعلمين بسوهاج.

(١) انظر: الخصائص ١: ٣٤

وتعد الألفاظ – في حدِّ ذاتها – معبِّراتٍ عمَّا في أنفس أصحابها، حيث تتأثر الألفاظ والمعاني بذلك البعد النفسي – إذ اللغة النفسية سابقة لكل اللغات اللفظي منها، أو ما يتعلق بلغة الجسد – وأحيانًا ندهش لما تحمله هذه الألفاظ من معانٍ أو أفكارٍ؛ فإذا ما أبانت عن مقصوداتنا؛ حكمنا على صاحبها بوضوح البيان، وبلاغة الكلام، وقوة التركيب، ونجاحه في تحقيق واقعية التلاؤم بين الألفاظ والسياق والقصد.

وإذا نجح المؤلف في أن تحمل دواله البصرية دلالاته المضمونية، أشرنا إليه بالتمكن والقبول، ووسمناه بالبليغ، وهو الذى يعبر بألفاظه عن معناه أوضح تعبير، مع مراعاة مقتضى الحال، وأفق التلقي (حسب نمط القراءة والقارئ).

ونحن – إذ نتأمل كلام البلغاء – نرى أنهم يمزجون الفصاحة بالبلاغة، أو يستعملونهما مترادفتين، كما يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة؛ حتى يُسابق معناه لفظَه، ولفظُه معناه؛ فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك ".(١)

وقد نظر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) إلى قضية اللفظ والمعني على ضوء من التكامل بينهما، وأشار إلى أن لهذا التكامل أثرًا بالغًا في وصول المتلقي للغرض المنشود من النص؛ كأنه يُعلمه حالة، أو تجربة، أو فكرة، أو ينقله خبرة، أو يدفعه إلى سلوك ما، أو يستثير وجدانه؛ ليتفاعل معه، ويتوحد مع قصده. بدا ذلك في قوله – في أساس البلاغة: " عنيت بكلامي كذا، أي: أردتُه وقصدتُه ".(٢)

ولا ريب في أنه – بذلك – يَربط بين ضفيرة الكلام، أو النص، وما يقصده صاحب النص، ولعل في كلامه إشارة إلى المعاني التي تحملها الألفاظ على سبيل المجاز والتكنية؛ كما أنه لم يُغفل الإشارة إلى عدم إغفال ما يسود

(١) انظر: البيان والتبيين، لأبى عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: ناصر محمدي محمد جاد، ط١، طبعة القدس، القاهرة، ٢٠١٣م: ١: ١١٥

(٢) أساس البلاغة: مادة: (عني).

المجتمع اللغوي من فكر جمعي ولغة عُرفية، في تحديد القصد، قريبًا كان أم بعيدًا؛ وكأن ائتلاف اللفظ والمعني – عنده – تتداخل فيه معانٍ ثلاثة، هي:

١- المعني الحقيقي للفظ، والذى يُعبر عن اللغة النفسية.

٢- لازم المعني الأول أو ملزومه.

٣- يكون مع التعريض؛ إذا كان عن طريق المجاز والكناية.(١)

والرجل الزمخشري – بعيدًا عن ضوابط معتقده الاعتزالي، وإيمانه به؛ إذ نحن غير مطالبين بالإيمان بها، أو بالخضوع لمعاييرها – أيقونةُ لغةٍ، استوعبت مستويات اللغة كلَّها، الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والتداولي، بل النفسيّ.

فحُقَّ – لنا – إزالةُ الغبارِ عن تراثه النَّر، ويكفيه أن لُقِّب بالمجاور، وأن رجله قد يبست في بحثه عن العلم، حتى سقطت، فقد استوعب إسهامات كلِّ مَنْ سبقُوه، ولاسيِّما عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، ونَقَّلَ نظريتَه من قاعديتها إلى قدرتها على التطبيق على النصوص اللغويَّة بعامتِها.

وقد اقتضت طبيعةُ هذا البحثِ أن يأتيَ في مقدمةٍ، ومحورين، وخاتمةٍ، وذلك النحو الآتي:

أولًا: المقدمـــــــة:

ثانيًا: المحور الأول، وهو بعنوان: اللفظ والمعنى علاقة تفاعلية قائمة على الإفادة والجمال، وفيه:

- اللفظ من أسباب تحسين المعنى / التفاعل بين شريكى الدلالة (اللفظ والمعني).
- اللفظ والمعني (مطابقة الكلام لمقتضى الحال).
- زيادة المباني تدل على زيادة المعاني.
- الدلالة الاجتماعيَّة للألفـــــاظ.
- الدلالة الهامشيَّة للألفـــــاظ.

(١) ائتلاف اللفظ والمعني إعجاز آخر للقرآن الكريم، تأليف: بشير ذو العلى درويش، باحث إيراني، مجلة ديوان العرب: (منبر حر للثقافة والفكر والأدب) بحث بشبكة المعلومات. Diwan alarab.com

- صدق اللفظ في الإخبار عن معناه ودقة تصويره لأبعاده.

ثالثًا: المحور الثاني، وهو بعنوان: اللفظ والمعنى ضفيرة دلالية، يضبها القصدية، والعرف، والسياق، والسعة الدلالية:

- كل لفظ تابع لمعناه:
- ائتلاف اللفظ والمعني (السبك والحبك):
- الصلة الذاتية بين اللفظ والمعني واللغة العرفية:
- اللفظ والمعني والسياق:
- اللفظ والمعني والقصدية النصيَّة:
- اللفظ وتوسيع الدلالة:
- اللفظ المعرَّب:

- رابعًا: الخاتمة، وفيها:
  - أهم النتائج.
  - أهم التوصيات.
  - ثبت المصادر والمراجع.

و إنى لأرجو الله – تعالى – أن يمنَّ علىَّ بنعمة الإخلاص في القول والعمل، وأن يكون عملى– هذا – خالصًا لوجهه الكريم، ينتفع به أبناء العربية، وأن يوفقنا إلى الصدق في القول والعمل، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

- الباحث

أولًا: المقدمة:

و تم فيها الحديث عن النقاط الآتية:

- أهمية قضية اللفظ والمعني.
- جهود بعض العلماء القدماء في تناولها.
- استيعاب الزمخشري لمنجزات سابقيه، في الكثير من المسائل اللغوية، ونقل القواعد إلى أمثلة، قابلة للتحليل وفق آلية التنظير.

ثانيًا: المحور الأول، وهو بعنوان: اللفظ والمعنى علاقة تفاعلية قائمة على الإفادة والجمال، وفيه:

مما يُحمد للزمخشرى – في هذا الشأن – هو إقراره بمبدأ التفاعل بين عنصرى الدلالة، المعنى(المدلول) واللفظ (الدال)، فقد سبق الدراسات اللسانية

الحديثة؛ بتنبيهه إلى تبعية المعنى للصياغة، وهو موقف متطور في تحليل النص، ومحاولة الكشف عن قصده، فهو يقر بأن كل تغير يطول الدال؛ يتبعه – حتمًا – تغْير في المعنى، وأن انتقاء الدوال ضمن محور الاستبدال؛ يحكمه حسن الوضع للألفاظ، على مقدار ما تشير إليه من معان.(١)

ولاشك في أن اللغة – بوصفها أصواتًا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم – دليل تفاهم وتواصل بين الجماعة اللغوية، ذلك التفاهم الذى ينعدم في حال انعدام لغة عرفية مستعملة متواضَع عليها، يتفاهمون بها، ويعبرون بها عن أنفسهم، ويقضون حاجاتهم، تلك اللغة التي تنقل المعاني بين أطراف الخطاب، والتي تضمن سلامة الدلالة، وتعين – بدورها – على الفهم والتواصل.

وتتمثل الإبانة عن قصد المؤلف في الحفاظ على الشكل الخارجى للكلام، وإيراد دوال تُزيل اللبس، وتثبِّت القصد / المعنى / الغرض، وفي هذا السياق يقول ابن جنى: " وكان حكم الأفعال كلّها بلفظ واحد؛ لأنها لمعنى واحد، غير أنه لما كان الغرض من صناعتها أن تفيد أزمنتها، خُولف بين مُثُلها؛ ليكون ذلك دليلًا على المراد فيها، فإن أمن اللبس فيها، جاز أن يقع بعضها موقع بعض، تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له.(٢)و يرتبط بحسن الهيئة زيادة في المعاني، تبعًا لزيادة المباني.

فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شىء، أوجبت القسمة له زيادة في المعنى به، وكذلك إن انحرف به عن سمته وهيئته؛ كان ذلك دليلًا على حادث متجدد له، وأكثر ذلك أن يكون ما حدث له زائدًا فيه، لا منتقصًا منه.(٣) وقد يُنظر إلى مسألة اللفظ والمعنى وفق مجموعة من القواعد والضوابط، على النحو الآتى:

---

(١) نظرية نحو النص في التراث اللغوى العربى (دراسة تأصيلية)، د: حمدى على بدوى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، سوهاج، غير منشورة، ٢٠١١م: ١٨٣

(٢)الخصائص ٣: ٣٣١، وانظر: حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، د: سمير أحمد معلوف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦م: ٢٣٧ وما بعدها.

(٣)الخصائص (مقدمة التحقيق) ٣: ٩

اللفظ من أسباب تحسين المعنى / التفاعل بين شريكي الدلالة (اللفظ والمعني):

والأصل في الكلام الحسن – عند الزمخشري – هو انتخاب الصور الشكلية (الألفاظ) التي تجمِّل المعنى، وتجعله صحيحًا، يقول: " تتعلق محاسن الكلام باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعًا، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء – ها هنا – (١) زائدًا على الصحة، فحسن وبدُع لفظًا ومعنى.(٢)

ويصرُّ الزمخشري على أن يُتبع كلَّ لفظ طاقة تفسيرية، بإيراد الاحتمالات الدلالية المتعددة والمقبولة لهذا اللفظ، وهو يراعي – بذلك – أفق التلقى لدى متلقيه الموصوف بخلو الذهن وفقًا للبعد الثقافي والنوعي لذلك المتلقِّي.

يقول في تفسير قوله – تعالي: " ومن يحلُلْ عليه غضبى فقد هوى ". (٣): " (هوى): هلك، أصله أن يسقط من جبل، فيهلك، قال:

هوى من رأس مرْقبةٍ ففُتَّتْ تحتَها كبدُهْ. (٤)

ويقولون: هوت أمُّه: سقط سقوطًا لا نهوض بعده، والاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور، وهو التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.(٥)

اللفظ والمعني (مطابقة الكلام لمقتضى الحال):

و يُنكر الزمخشري وجود الترادف بين الألفاظ المختلفة، إذ إن لكل لفظ دلالة جزئية معينة، ولكل لفظ معنى مقصود يحمله ويعبر عنه، ولا يصح –

(١)إشارة إلى قوله – تعالي: " وجئتك من سبإٍ بنبإٍ مبين ". سورة النمل: ٢٢

(٢)الكشاف (مرجع سابق) ٣: ٣١٨

(٣)سورة طه – عليه – الآية: ٨١

(٤) البيت من بحر الوافر (مجزوء الوافر)، وهو لأبي بن الأعرابي، يرثي ابنه، وقد سقط من ثنية عالية في الجبل، فدُكَّت رقبته، وتمزقت كبدُه. وهوى في البيت: سقط من جبل عالٍ، والمرقبة: الصخر العظيم أو الجبل العال، وهو – هنا – يشير إلى الثنية العالية، يرقب فيها رقيب.و يُروى: هوى من صخر صلد، أى: يبس لا يَنْبُتُ مطلقًا، وقد أراد الشاعر أن ابنه سقط من رأس جبل عالٍ؛ فمُزِّقت كبدُه تحتها متفرقة، أى: بجانبه؛ فكيف ببقية جسمه.انظر: تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الزمخشري) للأستاذ محب الدين أفندي، (د. ط) شركة مكتبة مصطفي البابى الحلبي وأولاده ومطبعته، القاهرة، (د. ت): ٣٨١

(٥)الكشاف (مرجع سابق) ٣: ٧٢

عنده – إحلال لفظ مكان آخر، بدا ذلك في معرض تناوله لقوله – تعالي – على لسان الهدهد: " وجئتك من سبإٍ بنبإٍ مبين ". (١) يقول: " ألا ترى أنه لو وُضع مكان بنبإٍ بخبرٍ لكان المعنى صحيحًا ؟ وهو – كما جاء – أصحُّ لما في النبإ من الزيادة التي يُطابقها وصف الحال ". (٢)

و يقرر الزمخشري أنه – حتى يُطابق الكلام مقتضى الحال – أن يتعلق اللفظ بالمعنى، وأن تدل الألفاظ الصحيحة المختارة على صحة المعني وسداده، وأن يكون اللفظ مطبوعًا، من دون تكلف، أو يصنعه عالم بجواهر الكلام، فينتخب اللفظ الدال انتخابًا، من دون تزيُّدٍ، فيحسن اللفظ والمعنى. (٣)

زيادة المباني تدل على زيادة المعاني:

يؤكِّد الزمخشري تلك القاعدة اللفظية الدلالية، وأن زيادة مورفيمات السوابق أو اللواحق مثل: (ال) التي للتعريف يؤدى – بالضرورة – إلى زيادة في الدلالة؛ وعنده أن استخدام لفظ (حياة) منكرًا دليل عموم، وبُعدٍ عن التحديد والتخصيص، فإذا ما زيد على بنيتها، مورفيم سابقة التعريف أفاد التخصيص؛ فلقد عرفت الحياة بـ (أل)، التي للتعريف، ووصفت بأنها الحياة الدنيا، وحصرت في أنها قائمة على اللهو واللعب.

لذا قال – تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. (٤) فالتعريف – هنا – للتخصيص، لأنها محصورة باللهو واللعب.(٥)

وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنزول، وما أشبه ذلك؛ والحياة حركة كما أن

---

(١) سورة النمل: ٢٢

(٢) الكشاف (مرجع سابق) ٣: ٣١٨

(٣) انظر: الكشاف ٣: ٣١٨

(٤)العنكبوت:٦٤

(٥) انظر: إعجاز القرآن البياني: ٢٣٣

الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة؛ مبالغة في معنى الحياة، ولذلك أُختيرت على الحياة، في هذا الموضع المقتضى للمبالغة. ([1])

و زيادة المباني التي يتبعها زيادة في المعاني هى– عند الزمخشري – لمراعاة حال المتلقي، واحترامًا لأفق التلقي لديه، والبعد به عن التعقيد والغموض وسوء الفهم؛ وذلك عنده من فصاحة الكلام وبلاغة المتكلم، وأن تلك الزيادة تهدف إلى إفادة المتلقي، من خلال البسط والإيضاح، وتجنب الإبهام، فقد أشار الزمخشري إلى ذلك في معرض تفسيره لقوله – تعالي – { ألم نشرحْ لك صدرك }.([2])

بقول: فإن قلت: أىٌّ فائدة في زيادة لك، والمعني مستقل بدونه ؟. قلت: في زيادة (لك) ما في طريقة الإبهام والإيضاح، كأنه قيل: ألم نشرح لك. ففُهم أن ثَمَّ مشروحًا، ثم قيل: صدرك؛ فأوضح ما عُلم مبهمًا، وكذلك لك ذكرك، وعنك وزرك.([3])

بل إنه يقرر أن هذه الزيادات في المباني تفيد تأكيد القصد، وتُجلِّي إبهامه، وتفصِّل في مواضع ما أجمل فهمه، وفي هذا السياق يقول الزمخشري: فإن قلت (لى) في قوله – تعالي – { رب اشرح لى صدري ويسر لي أمري}.([4]) ما جدواه، والكلام بدونه مستتب ؟.

قلت: قد أُبهم الكلام أولًا، فقيل: اشرح لى، ويسِّر لى؛ فعلم أن ثم مشروحًا وميسرًا، ثم بُيِّن ورُفع الإبهام بذكرهما؛ فكان آكَدَ لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره؛ من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعني الواحد من طريقى الإجمال والتفصيل.([5])

---

(١)الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الزمخشري: جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد مرسي عامر، القاهرة، دار المصحف، ط٢، ١٩٧٧م. ٣: ٤١١

(٢)سورة الشرح: ١

(٣) الكشاف ٤: ٦٦٠

(٤)سورة طه – عليه السلام – الآيتان: ٢٥–٢٦

(٥) الكشاف ٣: ٥٦

بل قد يكون في الموافقة مع زيادة المعنى، كما يعدل على مستوى الصيغ من فاعل إلى فعَّال، أو قد يكون في إثبات المعنى نصًّا لا احتمالاً؛ كزيادة حرف الجر مع النكرة في سياق النفي، ولهذا ينبغي التماس أغراض نزع الخافض، كالمبالغة في مثل هذا المقام للإبقاء على دلالة تعدي الفعل والإبانة عن وجه العدول من تعبير إلى آخر.

والأمر موجود عند الزمخشري في تفسير قوله – تعالى: ﴿أبلِّغُكُم رسالاتِ ربِّي وأنصحُ لكم﴾. (١) حيث يقول: " (وأنصح لكم). يقال: نصحته ونصحت له وفي زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعتْ خالصةً للمنصوح له مقصودًا بها جانبه لا غير، فربَّ نصيحةٍ ينتفع بها الناصح، فيقصد النفعين جميعًا، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ورسله – عليهم السلام".(٢)

و من المعلوم أن زيادة سابقة مورفيم التنفيس أو التسويف (السين وسوف)؛ مما يُخلِّص المضارع إلى زمن الاستقبال، وإلى دلالة أرحب؛ ليشمل إطاره الزمني الحال والاستقبال، فهى– عند الجمهور – حروف تنفيس / تسويف فيها تباطؤ في الفعل من جانب صاحبه؛ لكن الزمخشري يذهب إلى أنهما يفيدان التوكيد؛ إذا دخلتا على فعل محبوب أو مكروه، وأنهما تشيران إلى أنه واقع – لا محالة.

فنجده – أى: الزمخشري – في تفسير قوله – تعالي: " ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ".(٣) يقرر أن السين مفيدةٌ وجود الرحمة – لا محالة –فهى تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد، في قولك: سأنتقم منك يومًا. تعنى: أنك لا تفوتني، وإن تباطأ ذلك ".(٤)

و نستبين رأى الزمخشري في إقراره بأن زيادة المباني اللفظية تدل على زيادة في المعاني من قول ابن يعيش: " حين يضع حدودًا فارقة بين السين

(١) الأعراف: ٦٢

(٢) الكشاف: ١١٢/٢. وينظر: البحر المحيط: ٥: ٨٣.

(٣)سورة التوبة: ٧١

(٤) الكشاف ٢: ١٧٧

وسوف من الناحية الدلالية، فقد أورد رأى جمهور البصريين من أنهما تدلان على الاستقبال، عندما تدخلان على الفعل المضارع؛ إلا أن (سوف) أشدُّ تراخيًا في الاستقبال من السين، وأبلغ تنفيسًا ".(١)

و يقول –في قوله – تعالي: " الرحمن الرحيم ".(٢) ذلك لأن الرحمن، فعلان من رَحِمَ، وهو من أبنية ما يُبالغ وصفه، كـ: غضبان وسكران، من غضب وسكر؛ ألا ترى أنك إذا قلت: غضبان. فمعناه الممتلئ غضبًا ؟. فرحمان: للذى وسعت رحمته كل شيء، ولا يجوز أن يُقال: لغير الله: رحمان. إذ في (رحمان) من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمان الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا. ويُصرح بتلك القاعدة، قائلًا: إن الزيادة في البناء لزيادة المعني ".(٣)

من أجل ذلك اعتمد الزمخشري المعرفة النحوية، التي تضبط العلاقة بين اللفظ والمعني سبيلًا إلى تحقيق غايتهم المنشودة، وهي الوقوف على أسرار النصوص. يقول :" وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلوم الإسلامية – فقهها، وكلامها، وعلميّ تفسيرها،وأخبارها – إلا وافتقاره إلى العربية بيِّنٌ لا يُدفع، ومكشوف لا يُتَقنع، ويرون الكلام في معظم أو أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيًّا على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه، والأخفش، والكسائي، والفرّاء، وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم والتشبث بأهداب تفسيرهم وتأويلهم"(٤)

كما تؤدى زيادة المباني اللفظية إلى ثبات المعني، وإلى تهيؤ الذهن له؛ قبل وقوعه؛ ولا سيما إن كان للتأكيد، وهذا ما دلَّت عليه السين، في قوله – تعالي: " سيقول السفهاء من الناس ما ولَّاهم...". (٥)

---

(١)انظر: شرح المفصل، لابن يعيش ٢: ٢١٠

(٢) سورة الفاتحة: ٣

(٣) الكشاف ١: ٢٧

(٤)المفصل ١: ٨

(٥) سورة البقرة: ١٤٢

– فقد ذكر الزمخشري أن الفائدة في الإخبار– قبل وقوعه – من أنهم سيقولون ذلك، وقال: فائدته: إن مفاجأة المكروه أشدُّ؛ والعلم به قبل وقوعه، أبعد من الاضطراب إذا وقع؛ لما يتقدمه من توطين النفس، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وأردُّ لشغْبه، وقبل الرمي يراش السهم؛ ذلك لأن الأمر إذا حدث بغتة؛ يحصل به كرب شديد واختلال للنفس، فإذا نزلت الآية قبل ذلك؛ اطمأنَّت النفس، وبعُدت عن الاضطراب.(١)

– ويحمل اللفظ القرآني عند الزمخشري أبعادًا عميقة؛ تتأتى بإضافة بعض العناصر اللغوية البسيطة أو المركبة – مع مخالفتها للمستعمل المشهور في لغتهم العرفية – بدا ذلك في قوله – تعالي: " وما أهلكنا من قريةٍ إلَّا ولها كتاب معلوم ". (٢) يقول: " ولها كتاب معلوم ". جملة واقعة صفة لقريةٍ، والقياس ألَّل يتوسط الواو بينهما، كما في قوله – تعالي: " وما أهلكنا من قريةٍ إلَّا لها منذرون ". (٣)

– وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يُقال في الحال: جاءنى زيدٌ عليه ثوبٌ وجاءنى وعليه ثوبٌ... وأنَّث الأمة أولًا ثم ذكَّرها آخرًا حملًا على اللفظ والمعني.(٤)

– ويشهد لتلك القاعدة قوله، في تفسير قوله – تعالي: " أننا لمُخْرَجُون ". (٥) حين ذهب إلى أن كل زيادة في المباني اللغوية، بالسوابق أو باللواحق، أو بالزيادة في بنية الكلمة؛ إنما يتبعها زيادة في المعنى القريب، وتقريب للمعنى البعيد إن وُجد، يقول: " العامل في (إذا) ما عليه (أننا لمخرجون)، وهو نُخرج، لأن بين يدى عمل اسم الفاعل فيه عقابًا –أى ثلاث

---

(١) وقولهم: قبل الرمي يراش السهم. مثل عربي يُضرب للاستعداد للأمر قبل مفاجأته ووقوعه، وأصله: إن الرمي يضع الريش لسهامه، قبل أن يرمي بها؛ ليتعرف مدى نجاحه في الرمي بها، والمُراد – هنا – إعداد الجواب قبل السؤال. انظر: الكشاف ١: ١٩٥

(٢) سورة الحجر: ٤

(٣) سورة الشعراء: ٢٠٨

(٤) الكشاف (مرجع سابق) ٢: ٤٠٩ _ ٤١٠

(٥) سورة النمل: ٦٧

أدوات متعاقبة –، وهى: همزة الاستفهام، وإنَّ، ولام الابتداء، وواحدة منها كافية؛ فكيف إذا اجتمعن ؟.

– والمُراد: الإخراج من الأرض، أو من حال الفناء إلى الحياة؛ وتكرير حرف الاستفهام – بإدخاله على إذا وإن جميعًا – إنكارٌ على إنكارٍ، وجحودٌ على جحودٍ، ودليل على كفر مؤكَّدٍ مبالغ فيه.. كما زيدت اللام في قوله – تعالي: " عسى أن يكون ردف لكم ". (١) للتأكيد، وأصل التقدير: ردفكم، لكن اللام زيدت للتأكيد؛ كما زيدت الباء للتأكيد في قوله – تعالي: " ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التهلكة ". (٢)، والتقدير: ولا تُلقوا أيديكم. لكنها زيدت للتأكيد. (٣)

*** الدلالة الاجتماعيَّة للألفاظ:**

– ويُشير الزمخشري إلى أن للألفاظ دلالة اجتماعية؛ حيث ينكشف المعني العميق للألفاظ، من خلال ما يُحيط بها من إبهام وغموض، ليصبح معناها معلومًا، بعد أن كان مبهمًا؛ وهذه الدلالة الاجتماعية للألفاظ تؤكد وجود المعاني بمدلولها اللغوى أو الاجتماعي، أو بنقلها إلى معانٍ أخرى، كالاستعارة.

– وهو ما عبر عنه الزمخشري بالمعني الاستعاري، بقوله: " فإن قلت: الذى جاء به ليس بمثل، فكيف سمَّاه مثلًا ؟ قلت: سميت الصفة أو القصة الرائعة، المُتلقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلًا. ويُفهم من كلامه أن الدلالة الاجتماعية للألفاظ قد رُوعي فيها الفهم المتبادر عن الهيئة الاجتماعية، في تحديد معنى اللفظ، وضبط مدلوله، وهى وسيلة مهمة لكشف الغموض والإبهام عن الألفاظ، وإليها يرجع في معرفة النص، من خلال المعجم اللغوي ".(٤)

– ومن تلك الدلالة الاجتماعية للألفاظ تناول الزمخشري للفروق اللغوية بين لفظين، على أساس من اللغة العرفية، التي تؤكِّد شيوع لفظ، من دون آخر، وبمعنى ما، فيوازن بين الانتخاب اللفظى في القرآن الكريم بين لفظى (حنيذٍ وسمينٍ)، وأن الفظين معًا شكلا تكاملًا دلاليًّا، فمعنى قوله – تعالي: (حنيذ).

---

(١) سورة النمل: ٧٢

(٢) سورة البقرة: ١٩٥

(٣) انظر: الكشاف: (مرجع سابق) ٣: ٣٣٧ – ٣٣٨

(٤) انظر: الكشاف ٣: ١٧١، ونظرية النقد العربي رؤية قرآنية معاصرة: ٥٥

مشوى بالرضف، أى: الحجارة المحماة بالنار، في أخدود، وقيل: حنيذ، يُقطِّر دسمه من حنذت الفرس؛ إذا ألقيت عليها الجُلَّ حتى تقطّر عرقًا، وقد أكد هذا المعنى، قوله – تعالي: " سمين ". (١)

– ثم يُشير الزمخشري إلى حقيقة لغوية أقرتها الدراسات اللسانية الحديث، وهى: إنه ينبغي للمؤلف أن يَصوغ مفردات نصه التي تحمل معناه، وفق المعهود من الكلام، وتجنب غير المألوف، حتى يُحقق سمو المعنى، مع سلامة الفهم، لأن المؤلف لو خاطب المتلقِّي بلغة غريبة، فإنه يمجُّها، لأنه لا يفهم مقصدها كما ينبغي، فتضيع العلاقة بين طرفي الخطاب.

– جاء في الكشاف في قوله – تعالي: " بلسان عربيٍّ ". (٢) يقول: " ويتعلق (بلسان) بنزل،، فيكون المعني: نزَّله باللسان العربي لتُنذر به، لأنه لو نزَّله باللسان الأعجميِّ؛ لتجافوا عنه أصلًا، ولقالوا: ما نصنعُ به ؟ لا نفهمه؛ فيتعذَّرُ الإنذارُ به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية، التي هى لسانُك ولسانُ قومك تنزيلٌ له على قلبك، لأنك تفهمه، وتُفهمه قومك، ولو كان أعجميًّا لكان نازلًا على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها، ولا تعيها؛ وقد يكون الرجلُ عارفًا بعدة لغات؛ فإذا كُلِّم بلغته التي لُقِنَها أولًا، ونشأ عليها، وتطبَّع بها؛ لم يكن قلبُه إلَّا إلى معانى الكلام، يتلقاها بقلبه، ولا يكاد يَفْطِن للألفاظ كيف جرت، وإن كُلِّم بغير تلك اللغة – وإن كان ماهرًا بمعرفتها – كان نظره – أولًا – في ألفاظها ثم في معانيها. (٣)

– ثم يطابق بين الدلالة المعجمية وتلك التي عند الجماعة اللغوية، فيقول: الأعجم: الذى لا يُفصح. وفي لسانه عُجمةٌ واستعجام، والأعجميُّ مثله؛ إلَّا أن فيه لزيادة ياء النسب زيادة تأكيد.. ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجمُ وأعجميٌّ، شبهوه بما لا يُفصح ولا يُبين؛ وقالوا لكل ذى صوتٍ من البهائم والطيور وغيرها: أعجمُ. (٤)

(١) الكشاف ٢: ٢٧٤
(٢) سورة الشعراء: ١٩٥
(٣) انظر: الكشاف ٣: ٢٩٦
(٤) الكشاف ٣: ٢٩٧

– ويبدو أن في كلام الزمخشري تأكيدًا للعلاقة بين العلاقات النحوية التي تربط العناصر اللفظية، الحقائق الاجتماعية، أو اللغة العرفية، وكأن بينهما زمالة اجتماعية، وقد أصلَّت اللسانيات الحديثة لتلك العلاقة بما يُسمى: علم اللغة الاجتماعي، وأن اللغة في أصولها قد تتأثر بالعرف الاجتماعي، تبدأ من صناعة لغوية لفرد ما، ثم فئة من الصناع اللغويين، ثم يرضاها المجتمع، ويستعملها. (١)

*** الدلالة الهامشيَّة للألفاظ:**

– وهى: أوسع الدلالات مجالًا؛ لأنها تعتمد على التعددية التخصصية في الاستنتاج، فهى تبعٌ لنوعية الثقافة لدى المفسِّر، ودقة نظره، وزاوية إفادته، على مختلف الثقافات والاتجاهات عند المفسرين؛ فقد نجد في سياق العبارات من الألفاظ أثرًا للمطابقة والمقابلة في مجانسة الأضداد، والجمع بين المتقابلين، والتفريق بين المتجانسين؛ مما يلحظه البلاغي؛ بحسب ذائقته الفنية، بينما يلحظ فيها النحوي مجالًا آخر في الاستفادة من تخريج اللفظ على الوجه النحوي، في الاستعمال القياسي أو السماعي؛ حتى لا يهم اللغوي منه هذا الفهم أو ذاك؛ بل يبحث عن ضالته في تكثيف معجمه اللغوي، بما يفيده هذا اللفظ أو ذاك ".(٢)

– وحينما ينظر البلاغي إلى النص – بتشكيلته من البنية السطحية والبنية العميقة؛ في إطار دلالة الشكل على المعني – يستطيع أن يؤوله وفقَ اعتبارات عديدة؛ يغوص بعضها في الأعماق، ويطفو بعضها على السطح؛ كل ذلك يعينه على استخراج الصور البلاغية الأصيلة؛ كالمجاز، والتشبيه والاستعارة؛ فإن فهمه الخاص يقوده إلى استنباط جمال اللفظ بوجوه مختلفة ".(٣)

– ولقد أشار الزمخشري إلى مصطلح الدلالة الهامشية، وذلك في معرض تناوله لقوله – تعالي: " كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ".(٤)

---

(١) انظر: مفهوم اللغة عند البنيويين، د: إحسان عبد القدوس، صحيفة دار العلوم، العدد (٣٦)، رجب ١٤٣١هـ /يوليه ٢٠١٠م: ١٢٥

(٢) نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة "، ط دار المؤرِّخ: ٦١

(٣) نظرية النقد العربي رؤية قرآنية معاصرة: ٦٣

(٤) سورة البقرة: ٢٠

حيث بحث في مواقع الألفاظ بعضها من بعض، وكذلك موقع لفظ من لفظ؛ ففي المثال السابق يتكون التركيب القرآني من تسع كلمات، يتحقق فيها عنصر المقابلة – باستثناء التعبير الهامشي فيه – وهذه المقابلة والتجانس حققا تكاملًا، وتسلسلًا، وصياغة تدفع للذة دفعًا، وقد عرض الزمخشري لجمال هذا الجزء.

– بقوله: " فإن قلت: كيف قِيل مع الإضاءة: (كلما) ؟. ومع الظلام: (إذا) ؟. قلت: لأنهم حِراص على وجود ما همهم به معقود، ومن إمكان المشى وتأتِّيه؛ فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتَّحيُّس، وقد أشار إلى عدم ملائمة (أضاء) (لأظلم)، و(لهم) (لعليِّهم)، و(مشوا) (لقاموا)، فيما تُعطى من وجود منطقى للتركيب، وعظيم الدلالة ".(١)

– وقد يستعمل المؤلِّف الألفاظ معرضًا بها على المعاني؛ وأداته في ذلك المحسنات الكلامية، مثل فنون البديع والتكنية، وهنا قد يُحتمل التخريج دلالات هامشية إلى جوار الدلالات المركزية العرفية، بدا ذلك في تناول الزمخشري لدلالة كلمة (امرأة)في قوله – تعالي: " وضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط.. ".(٢)

– فيشير الزمخشري إلى تلك الدلالة الهامشية، التي تحملها لفظة (امرأة)، إذ هى– عنده – تعريض بغيرهما من النساء، يقول: " وفي طىِّ هذين التمثيلين تعريض بأمىِّ المؤمنين؛ المذكورتين في أول السورة (عائشة وحفصة – رضى الله عنهما) وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده.. وألَّا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله؛ فإن ذلك الفضل لا ينفعهما، وإلا مع كونهما مخلصتين.. وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًّا؛ يدق عن تفطن العالم، ويزل عن تبصره ".(٣)

---

(١) الكشاف ١: ٩٤ – ٩٥

(٢) سورة التحريم: ١٠

(٣) الكشاف ٤: ٤٨٥ – ٤٨٦، ٤: ٧٠٥

*** صدق اللفظ في الإخبار عن معناه ودقة تصويره لأبعاده النفسية:**

– ويروم المؤلف – عند الزمخشري – انتخاب ألفاظه، بأن ينتخب لفظًا يشمل المعني المقصود، ويدلُّ عليه أتم الدلالة وأصدقها، وينجح في تصوير سياقات ذلك المعني، ويدلف بالمتلقي إلى سراديب العمق الدلالي، يمكنه من ذلك انطلاقه من إدراك أبعاد السطح، لذا فقد تُختار المفردة القرآنية لتصوير الحركة بدقة.

– كما في قوله – تعالى: ﴿فراغ إلى أهله﴾. (١)، فكلمة (راغ)، أعطت للنص إيحاء وبعدًا جديدين، ذلك أنها – فضلًا عن تصويرها ذهاب إبراهيم – عليه السلام – جسَّدت حركته بدقة، من غير أن يكون ذلك لمجرد مُتعةٍ أدبية في التصوير، وإنما هي الدقة المقرونةً بالصدق في الخبر.

– تلك اللفظة التي حملت ذلك المعني من التخفي من ضيوفه لما أنكرهم، ولرغبته الصادقة في ضيافتهم؛ وأن يباده بالقري من غير أن يشعر به الضيف؛ حذرًا من أن يكفَّه ويعذرَه، ومن أدب المضيف أن يُخفيَ أمره، فكان ذلك اللفظ صادقًا في حمل ما يختلج في نفس إبراهيم – عليه السلام – وصوَّر بعده النفسي؛ لذا لا يجوز – عند الزمخشري – استبدال لفظ بلفظ؛ ليعبر عن ذات المعنى الذى قصده المؤلف، لأن من شرائطه أن يصدق اللفظ في التعبير عن معنى مقصود دون غيره، وعلى ذلك حمل الآية السابقة.(٢)

– ومن دلائل الائتلاف بين اللفظ والمعنى عند الزمخشري جواز التشريك في اللفظ والمعنى؛ فلا جفاء بينهما، ولا نبز، ولا زيادة لأحدهما على الآخر، ولا قصور في أحدهما عن حمل الآخر، وكأن اللفظ مقسومًا على رُتب المعاني، قد جُعل الأخص للأخص، والأخسُّ للأخسِّ، بأن يجمع إلى صورته الشكلية معنى حسيًّا، يُسهم في إبانة المعنى المقصود، فتجمع اللفظة بين معناها المباشر – أو المركزى كما يسميه الوصفيون المحدثون – والمعنى الذى دلت عليه بمعونة

---

(١) سورة الذاريات: ٢٦

(٢)الكشاف، جار الله الزمخشري، تحقيق: يوسف الحمادي، ط١،مكتبة مصر، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م، ٣: ٣٤٦

السياق، والمعني الجذرى المتوافق عليه من قبل الجماعة اللغوية؛ اعتمادًا عليه في ترجيح أحد الاحتمالات الدلالية للفظة ذاتها.

– كل ذلك رغبة من مؤلف النص في أن تُجيد الألفاظ في التعبير عن المعاني؛ بالصورة المباشرة، التي تلتصق بذهن المتلقّي، وفي فكره الجمعى، من دون إنكار من جماعته اللغوية، وأن تنقله إلى معانٍ أُخَر بانتقال حسن، أو ما يسميه المحدثون: التدرج في الإعلامية النصية، أو حسن دينامية الاتصال بمراعاة أفق المتلقّي، دون صدمته.

و يكون ذلك الانتقال تكاملى الدلالة والمنهج، حيث ينتقل المؤلف من المعنى السطحى، أو البنية السطحية للنص، إلى البنية العميقة بصورة لا تقاطع فيها، ويشملها سياق خاص بانفعال المؤلف والمتلقّي على السواء.

و قد أشار الزمخشري إلى تلك الخصيصة اللفظية في معرض تناوله لقوله – تعالى :﴿ فَصبَّ عليهم ربُك سوط عذاب﴾. (١) فالسوط: ما يُضرب به؛ تشبيهًا بعذاب السوط. وقيل: إشارة إلى معنى المخالطة الذي يؤديه الفعل (ساط)، أي خلط أنواع العذاب، أو مخالطة الدماء واللحوم جراء العذاب.

وفي هذا السياق يقول الزمخشري – مشيرًا إلى أن هذا اللفظ قد حمل تصاعدًا دلاليًّا، وتنويعًا في معناه، وحقَّق انفتاحًا كبيرًا على مستوى الاحتمالات الدلالية – يقول: " يُقال: صبَّ عليه السوط، وغشَّاه، وقنَّعه. ذكرُ السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة؛ كالسوط إذا قِيس إلى سائر ما يعذب به؛ وكأن عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذهم بسوط منها.(٢)

فليس من السهولة تمييز المعنى المراد على وجه التحقيق، والفصل بين ما توحي بها للفظة وتخرج إليه من دلالات، وبين معناها المباشر، إلا بمراعاة تلك العلاقة التداخلية بين شريكيِّ الدلالة اللفظ ومعناه، بضوابط الدلالة البصرية للعنصر اللغوي وفق جذره، وكذلك السياق القبلى (السياق السابق) أو

(١)سورة الفجر:١٣

(٢) الكشاف ٤: ٦٤٣

المتوازى؛ فلقد أصبح النص، وكأنه قد استغل كل هذه المعاني في لفظةٍ بقيت بين الحقيقة والمجاز تُفهم الأمرين من غير التباس ولا غموض.(١)

ثالثًا: المحور الثاني، وهو بعنوان: اللفظ والمعنى ضفيرة دلالية، يضبطها القصدية، والسلامة والأداء والعرف، والسياق، والسعة الدلالية:

كل لفظ تابع لمعناه:

لقد أدرك الزمخشري طبيعة العلاقة التلازمية بين اللفظ ومعناه؛ حيث لا يوجد لفظٌ من دون معني، ولا وجود لمعني من دون لفظ أو ألفاظ، أو ما تنوب عن الألفاظ في حمل المعاني؛ كلغة العيون ولغة الجسد، والإشارات غير اللفظية، وأحيانًا ينوب الصمت عن الألفاظ في حمل المعاني، وهو ما سماه الجاحظ: دلالة السكوت والاعتبار، حين قال: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس ثمارك، فإنها إن لم تُجبك حوارًا؛ أجابتك اعتبارًا ".(٢)

وقد يُغير المقام دلالة اللفظ على معناه الموضوع له في الأصل، كما في قوله – تعالي: " فأقبلت امرأته في صَرَّةٍ وصكَّت وجهها وقالت عجوزٌ عقيمٌ".(٣) إذ من المعلوم أن زوج إبراهيم تعجبت لإمكانية أن تُصبح أمًّا، وهى على حالتها من العجز، وزوجه شيخ هرم، قد فات كلاهما أمر الإنجاب، لكن الزمخشري يوجه معنى قوله – تعالي: " فصكت ". توجيهًا يتناسب مع أخلاق أزواج الأنبياء، فيقول: قيل: فلطمت ببسط يديها، وهذا يتنافي مع جلال الحياء، إذ فيه جزعٌ وخزىٌ، فيرجح أن يكون المعنى: فضربن بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب، قائلة: أنا عجوز، فكيف ألدُ ؟. (٤)

فإذا كان المعني في صورة ذهنية؛ فقد وُضع بإزائه لفظ، هو القصد من تلك الصورة أو هويتها، وهذا التلازم يفسده سوء الترتيب، إلَّا لعلة بلاغية مقصودة، وتحقق جمالًا في التعبير عن تمام المعني؛ حينما تتضام الألفاظ المعبرة عن قصد ما، بعضها إلى بعض.

---

(١) انظر: رى الظمآن في بيان القرآن: ٧٥

(٢)البيان والتبيين (ط مكتبة القدس): ٧١

(٣) سورة الذاريات: ٢٩

(٤) انظر: الكشاف ٤: ٣٤٦

ومن خصائص اللفظ عند الزمخشري الإحاطة بتمام المعني، ومراعاته لأفق المتلقي، والرفق به، وحُسن التفاوض معه؛ وإن بدا فيه عتابًا، وذلك ما بدا في تناوله لكلمة نشرح من قوله – تعالي: {ألم نشرح لك صدرك }. ([1])

فقد أكد الزمخشري أن ظاهر اللفظ إنشاء بالاستفهام؛ أما باطنُه فإخبار من الله – تعالي – لنبيه بأن هذا اللفظ قد شمل نعمًا من الله على نبيه؛ منها: أنه – تعالي – قد فسَّح له صدره، ليسعَ هموم النبوة، وليدعوَ الثقلين جميعًا، أو فسَّحه – تعالي – بأن ملأه حكمة وعلمًا، وأزال عنه الضيق والحرج.([2])

و قد أكدت اللسانيات الحديثة أن الصورة اللفظية أو البصرية لنص ما هى ردة فعل لتأثر نفسي بسياق سابق للنطق بهذا النص، وكأن المؤلف – بألفاظه – يعبر عن بُعد نفسي أصابه جراء سياق ما، أثر فيه، ودفعه إلى الامتلاء النفسي، ثم التعبير عن نفسه بألفاظ منتخبة غير عشوائية.

ويمكن أن يُقال: إن الألفاظ لغة نفسية أكثر من كونها نتاجًا لفظيًّا، وليس صحيحًا أن يظن البعض أن المعاني تبع للألفاظ، حين رأى المعاني تقعُ في نفسِه، بعدِ وقوع الألفاظِ في سَمْعِه والأقيس من حيث الدلالة أن يُقال: ينبغي للفظ أن يكون ملائمًا لمعناه، الذى يشير إليه، ويقصده المؤلف، ويفهمه المتلقي.

و قد يكون اللفظ قويًّا منتخبًا، فيعبر عن معانٍ عديدة، جميعها مقبول، ولها هدف مشترك، وهو الإبانة عن القصد، وجميعها تحمل معانى احتمالية التحقق على ضوء هذا القصد.

فقد ذكر الزمخشري أن كلمة (وزير) في قوله – تعالي: { واجعل لى وزيرًا من أهلي}. ([3]) تحتمل معانٍ عدة، مشيرًا بذلك إلى البعد النفسي لصاحب اللفظ، مؤلفًا كان أو متلقيًّا، فلفظه دليلٌ على اختلاج صدره بمعني ما، يقول الزمخشري:

---

(١)سورة الشرح: ١

(٢) الكشاف ٤: ٦٦٠

(٣)سورة طه – عليه السلام – الآية: ٢٩

فقد تكون من (الوَزَر). والوَزَر: هو: كل ما التجأت إليه من جبل أو غيره، وتخلصت به، فهو وزرك، قال تعالى: (كَلاَّ لاَ وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ).(١) وسُمِّيَ الوزيرُ بذلك؛ لأن الملك يعتصم برأيه، ويلتجئ إليه في أموره.

و اللفظ – بهذا المعني – كشف لنا نفس الكافر، حيت لا يجد مفرًّا ومُخلِّصًا من الله إلاه، فهو يفرُّ منه إليه خاصة؛ إذ لا مستقر إلَّا مستقره، ولا استقرار لعباده إلَّا في مستقره – سبحانه – فهم لا يقدرون أن يستقروا إلى غيره فينصبوا، وإلى حكمه ترجع أمور العباد، لا يحكم فيها غيره.(٢)

وقد تكون من (الوزْر)، وهو الحِمْل الثقيل، وأنه – تعالي – حمله على النقيض، وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله، وكأنه مَثَلٌ لما كان يثقُلُ على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويغمُّه من فُرطاته قبل النبوة؛ أو من جهله بالأحكام والشرائع، أو من تهالكه على إسلام أولى العناد من قومه وتلهفه؛ ووضعه عنه أن عُفر له، أو عُلِّم الشرائع أو مهِّد عذره بعد ما بلَّغ وبالغ.(٣)

يقول – تعالى: (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ). (٤)، وقال: (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِم ألا ساء ما يزرون). (٥) وسُمِّي الوزيرُ بذلك؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومُؤَنه.(٦)

و يستطرد الزمخشري في إقراره بأن الألفاظ هى قوالب المعاني، وكأن الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح؛ وربط بين المعني السطحى للألفاظ وبنيتها النفسية العميقة، لذا ربط بين دلالة الفعل (وزر) على العقوبة الثقيلة الباهظة، وبين دلالتها الداخلية على هلاك النفس وشقائها؛ وسماها: وزرًا؛ تشبيهًا – في ثقلها على المُعاقب وصعوبة احتمالها – بالحمل الذى يَفدح الحامل، وينقض

(١)سورة القيامة:١١-١٢

(٢)الكشاف ٤: ٥٦٣

(٣) الكشاف ٤: ٦٦٠، ١: ٦٢١

(٤)سورة الشرح:٢

(٥)سورة الأنعام:٣١

(٦)الكشاف ١: ٦١٧ وما بعدها

ظهره، ويلقى عليه بُهره، أى: يقطع نفسه من الإعياء، أو لأنها –أى العقوبة – جزاء الوزر، وهو الإثم.(١)

وقد تكون من (المؤازرة)، وهي المعاونة، وتتسع لفظة (وزير) لهذه الدلالات كلِّها، فعلى المعنى الأول يكون موسى – عليه السلام – قد دعا ربَّه أن يجعل من أهله من يلجأ إليه في أموره، ويعتصم برأيه، وعلى الثاني دعاه أن يجعل منهم من يحمل الثقل عنه، ويعينه في رأيه، وعلى الثالث دعاه أن يجعل منهم من يعينه في دعوته. وليس بعيدًا أن يكون موسى – عليه السلام – قد قصد هذه الدلالات كلها في هذه اللفظة.(٢)

و لا يتحقق الكلام بمعناه الاصطلاحى إذا لم يُفد، حيث يُخرج من الكلام الألفاظ المفردة، وفي هذا إشارة إلى أن مؤدَّى الكلام هو المعنى / الإفادة؛ وتترابط الألفاظ بعضها مع بعض، لتدل على المعني عن طريق الإسناد، أو قاعدة التمام اللغوية

حيث يقول الزمخشري: " والكلام: هو المركب من كلمتين، أسندت إحداهما إلى الأخري، وذلك لا يأتى إلا في اسمين، كقولك: زيدٌ أخوك. أو فعل واسم، نحو قولك: ضُرب زيدٌ، وتسمى جملة ".(٣)

و عنده أن الإسناد الجملي هو الرابطة المعنوية الكبري بين طرفي الإسناد، ولو تجرد الكلام من الإسناد؛ لكان في حكم الأصوات، التي يُنعق بها غير معربة.(٤)

و تجدر الإشارة إلى أن جمال اللفظ إنما يتمثل في حّمْله معناه، ومطابقته له، ولا يمكن أن يقتصر ذلك الجمال على اللذة الشكلية، التي تمنح المتلقِّي شعورًا باليقظة، ولا سيما حين تنقل الألفاظ من أسلوب إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى؛ والأصوب أن يُقاس الالتفات – مثلًا –على أساس أن الانتقال من

(١) الكشاف ٣: ٧٧

(٢) الكشاف ٣: ٥٦

(٣) انظر: الكشاف ٢: ٥٠، وانظر: شرح المفصل لابن يعيش، (د. ط ٩ عالم الكتب، بيروت، (د. ت)، ١: ١٨

(٤)انظر: المفصل: ٢٤

الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب؛ غير أن تلك الفائدة لا تحدُّ بحدٍّ، ولا تُضبط بضابط، لكن يُشار إلى مواضع منها، ليُقاس عليها غيرها".(١)

و يجعل الزمخشري من عدم مطابقة اللفظ لمعناه خللًا من المؤلف، وسبيلًا إلى تنافر القصد، وبُعدًا عن الإصابة الدلالية والسلامة اللغوية؛ وانحرافًا عن السنن العرفية، التي يضمنها النظام اللغوى العام، ويعتمد المؤلف – في ذلك – على خلفية المتلقِّي والسياق المحدد.

انظر إلى الزمخشري حين يتناول قوله – تعالي: " يد الله مغلولة ". (٢) يقول: " فإن قلت: قد صحَّ أن قولهم: " يد الله مغلولة ". عبارة عن البخل، فماذا تصنع بقوله – تعالي: " غُلَّت أيديهم ". (٣) ومن حقه أن يُطابق ما تقدمه؛ وإلا تنافر الكلام، وزل عن سننه ؟. قلت: يجوز أن يكون معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم، ونحوه بيت الأشتر:

بقيتُ وفرى وانحرفت عن العُلا و لقيتُ أضيافي بوجه عبوس.(٤)

و يجوز أن يكون دعاءً عليهم بغلِّ الأيدى حقيقة، يُغللون في الدنيا أسارى، وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم، والطباق من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز؛ كما تقول: سبَّنى سبَّ الله دابره. أى: قطع؛ لأن السبَّ أصله القطع.

فإن قلتَ: كيف جاز أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح، وهو البخل والنكد ؟ قلتُ: " المراد به الدعاء بالخذلان، الذى تقسو به قلوبهم؛ فيزيدون بخلًا إلى

---

(١) الظمآن في بيان القرآن: ١٢٥

(٢) سورة المائدة: ٦٤

(٣) سورة المائدة: ٦٤

(٤)و البيت لمالك الأشتر النخعى وفي ديوانه، الذى نشرته مجلة جامعة تشرين، تحقيق: عدنان محمد، ٢٠٠٥م: ٦٧، وهو من بحر الكامل، والشاعر فيه يدعو على نفسه بالهلاك، وأن يخلف وراءه ثراءه، وبأن ينحرف عن طلب العُلا، والسير في طريق المجد، وبأن يتحول بخيلًا يلقى أضيافه بوجه عبوس.انظر: ديوان مالك الأشتر، جمع وشرح وتحقيق: قيس العطار، (ط !)، ١٩٩٠م: ١٠٥

بُخلهم، ونكدًا إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم، وسوء الأحدوثة التي تخزيهم وتمزق أعراضهم.([1])

و لقد عُنى الزمخشري بالمعني عناية بالغة، على الرغم من قوله بائتلاف القسيمين اللفظ والمعني، فتتبع اللفظ في حال إفراده، وتركيبه، وتعبيره عن الحقيقة، أو استعارته على سبيل المجاز؛ " لأنه السبيل إلى المقصود من النص، فإرادة المعني آكدُ من إرادة اللفظ – وفي ذلك إشارة منه إلى أن النص لغة نفسية، ينتج بوصفه ردة فعل لحالة ما، أو لحدث ما، أو تأثرًا بموقف ما، أو رغبة في إحداث فعل ما، فإنه – أى: المعني – هو المقصود، والألفاظ وسيلة لتمام المعاني، وحُسْن تصويرها ".([2])

ائتلاف اللفظ والمعني (السبك والحبك):

وإذا تحقق للبلاغيين سبقُهم في الكشف عن كثير من الأدوات التي يتحقق بها التماسك النصي؛ فقد كشف المفسرون عمَّا في القرآن من تماسك وانسجام، من خلال التحليل الدلالي للتراكيب النحوية. من مثل ما نراه في تفسير الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) لقوله – تعالى –" وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون " ([3]).

يقول: " فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: " ثم لا يُنصرون " ؟. قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء. كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا يُنصرون. فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى ؟.

قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها، وأبشركم بها بعد التولية؛ أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة؛ لا ينهضون بجناح، ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة، وبنى النضير، وبنى قينقاع، ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذى عطف عليه هذا

---

(١)انظر: الكشاف (مرجع سابق) ١: ٥٧٦ – ٥٧٧

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٦: ١١١ (بتصرف).

(٣) سورة آل عمران: الآية رقم ١١١

الخبر ؟. قلت: جملة الشرط والجزاء؛ كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا يُنصرون ".(١)

و يؤكِّد الزمخشري ائتلاف الألفاظ والمعاني؛ فكل لفظة متمكنة في مكانها، غير مغتصبة لموضع صاحبتها، تشير إلى معني مقصود، وإلى متلقٍّ مقصود، بحيث لا يمكن للفظة أخري أن تخلُفها في الإشارة إلى المعني ذاته، ولو أستُكرهت لأن تحل في هذا الموضع لفسد المعني.

ففي تفسير قوله – تعالي: " الحمد لله ربِّ العالمين ". (٢) يقول: " والحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها؛ تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسَبه وشجاعته. أما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح، والحمد باللسان، وهو أخص؛ أما الشكر فباللسان والجوارح والجنان، لذا فهو أعم، قال:

أفادتكمُ النَّعْماءُ منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجَّبا.(٣)

و الحمد باللسان وحده، وهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله – عليه السلام: " الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبدٌ لم يحمده ". وإنما جُعل الحمد رأس الشكر؛ لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها، وأدلُ على

---

(١) الكشاف، ١٦٢\١، ٢٧٨\١

(٢) سورة الفاتحة: ١

(٣)البيت للإمام الشافعي، المتوفي سنة ٧٧٧ هـ وهو من بحر الطويل، وهو يعظِّم فيه صنيع قومه معه، ويرجو شكرهم، ليكون وافيًا لحقهم، ويعاهدهم بأن نعمهم – هذه – سيردها إليهم من يده ولسانه وجنانه، فهى وأعماله لهم.

أراد باللسان: القول، وبالضمير المحجب: القلب. انظر: ديوان الإمام الشافعى، حبر الأمة محمد بن إدريس (ت ٨٢٠ هـ) جمعه الأستاذ: نعيم زرزور، قدم له، د: مفيد قميحة، (د. ط) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت): ١٠٢، وديوان الشافعى، (ط: دار المنار)، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م: ٥٦. وكذلك انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (ذكر شيء من أخبار نوح – عليه السلام، تحقيق: عماد زكى البارودي وآخرين، (د. ط) دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ٢٠١١م، ١: ١٣٣ ونهج البلاغة، للإمام على – رضى الله عنه – ١: ٢٢٢

و في كتاب شذرات الذهب، ٨: ٢١٨ وكتاب شرح شعراء الغدير في القرن الثامن، للعلامة الأميني، ١٥ – ٦٧ www. mezan. net , ahoulbayt, html، وانظر كذلك: شرح العقيدة الواسطية، لمحمد بن خليل بن هراس، (د. ط) دار بن عفان، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م: ٨٣

مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح؛ لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، بخلاف اللسان؛ وهو النطق الذى يُفصح عن كل خفي، ويُجلى كل مشتبه، والحمد نقيضه الذم، والشكر نقيضه الكفران ".(١)

و قد عدَّ الزمخشري هذا الائتلاف المتحقق بين عنصري النص سببًا في تماسكه، وأن ذلك مما يمنح المتلقّي يقظة ونشاطًا وتحريكًا لنفسه، والتذاذًا بالخطاب الشكلى والمضموني، بدا ذلك في جوابه على خليله المستفسر دائمًا، في جميع كشافه، يقول المستفسر: لِمَ الاستعانة، في قوله – تعالي: " إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ".؟ (٢)

يقول الزمخشري: " ليتناول كل مُستعان فيه، والأحسن أن تُرادَ الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله – تعالي: " اهدنا ". بيانًا للمطلوب من المعونة؛ كأنه قيل: كيف أعينكم ؟ فقالوا: " اهدنا الصراط المستقيم ". (٣)

و إنما كان أحسنَ لتلاؤم الكلام، وأخْذ بعضه بحُجْزة بعض ".(٤) وقصد الزمخشري من ذلك أن يتحقق التماسك النصى، شدة ملائمة الألفاظ لمعانيها؛ فكأنهما في قوالب مصهورة بفعل المؤلف؛ فكل لفظ موضوع لمعني في سياق خاص، ويبين الاستعمال والسياق معناه الذى يحمله.

و من يتأمل تفسير الزمخشري يدرك أن في الألفاظ دلالة على معانيها، وقد تناولت البعد النفسي، الذى تحمله الألفاظ، وقد أضفت فضفاضًا من الأحاسيس، التي يتأملها الإنسان – وبذلك يمكننا دفع دعوي أن الدراسات النصية للعرب قد أهملت الجانب النفسي العاطفي، بل يقوم علم المعاني عند الزمخشري – إلى جانب ذلك – على استحضار الصور الجميلة للمعاني، يصحبها ذوقٌ جيدٌ، مع الاحتفاء بموهبة المتلقّي في إدراك كل ذلك – فيقف خاشًا متطلعًا إلى فلسفة هذا الاختيار في لفظ دون لفظ، وكلمة بدل كلمة؛ مما يحقق في جزء كبير منه معني

(١) الكشاف (ط مكتبة مصر) ١: ٢٨

(٢) سورة الفاتحة: ٥

(٣) سورة الفاتحة: ٦

(٤) والحُجزة: هى موضع شدِّ الإزار من الوسط. انظر: الكشاف ١: ٣٢

الإعجاز، حتى في حدود الكلمة المفردة، وإلا فلا أقل من تحقيق جزء من عناصر الصورة الفنية ".([1])

و يميل الزمخشري إلى القول بأن الجمع بين جمال اللفظ والمعني هو: مقياس البلاغة، وميزان القيمة الفنية لصاحب النص ونصه؛ وأن الكلام يسمو بجمالهما وائتلافهما، وينخفض إذا غاب عن النص عنصر الجمال، والائتلاف على مستوى اللفظ والمعني.

-* الصلة الذاتية بين اللفظ والمعني واللغة العرفية:

- تعد الصلة بين الألفاظ ومعانيها صلة عرفية، تتوافق عليها الجماعة اللغوية، وهى صلة لا تخضع لمنطق أو عقل، إذ هى- في كثير من جوانبها - توقيفية؛ وينبغي للمتلقى- حتى يفهم كلام المؤلف، ويعيَ مراده من وراء ألفاظه - أن يكون قد مرَّ بخبرات دلالية كثيرة، تعينه على الإحاطة بمراد تلك الألفاظ من دون غيره، في سياقاتها المحدِّدة لقصد المؤلف، مع ترك مساحات دلالية على سبيل التوسع، الذى يحدده تعدد القراءات، ونمط القراءة، ونوعية القارئ، والخلفيات الثقافية، وطبيعة الفكر الجمعى للجماعة اللغوية وتوجهه.

- لذا فإن ثمت قصورًا ينتاب ذهن المتلقي حال قصور الألفاظ عن حمل معناها، لذا فإن انتخاب الألفاظ يسهم - بدور حاسم -في إتمام عملية الإدراك والفهم؛ إذ لا تؤدي المعاني بالألفاظ، ولا تتحقق الصورة الدلالية في الذهن إلا حين ننطق بألفاظ معينة، ومن أجل هذا أطلق المفكرون على الصلة بين اللفظ ومدلوله: الصلة الطبيعية، أو الصلة الذاتية.([2])

- وقد أصَّل الزمخشري تلك القاعدة حين تناول انتخاب الخطاب القرآني للفظة (ضيزى)، من قوله - تعالي: " تلك إذا قسمةٌ ضيزى ". ([3]) فقد أشار إلى أن تلك المفردة تحمل بعدًا دلاليًّا لجماعة لغوية، فقد حمل ثقل حروف ثقل المعنى الذى أشارت إليه؛ لذا انتقل بها الزمخشري من معناها الشائع المستعمل

(١) نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة): ٦٧

(٢) انظر: دلالة الألفاظ: ٤٧

(٣)سورة النجم:

إلى معناها الأدق والصادق المهجور، حين أكد أنها تدل على الضيم، وهو الظلم الشديد، مبتعدًا عن المعنى المشهور، وهو القسمة الجائرة، وقد أبان قصدية الخطاب القرآني من ذلك؛ حين أكد أنها من (ضوزى)، ففُعل بها ما فعل ببيض؛ لتسلم الياء. (١)

– كما أكد الزمخشري صدق اللفظ في الإخبار عن معناه الحقيقي يُحدث نوعًا من السبك للعناصر اللغوية، ويُعين المتلقِّي على إدراك حالات التناسب بين المتجاورات أو المتعاطفات اللغوية، من ذلك إشارته إن أن للفظ معنى صادقًا، قلما يغايره إلا لعلة بلاغية مقصودة، وتزول تلك الدلالة المستحدثة بزوال تلك العلة، كل ذلك على سبيل التوسع الدلالة، بإدراك البنية العميقة من خلال البنية السطحية والمتجاورات اللغوية، كما في قوله – تعالي: " النجم والشجر يسجدان". (٢)

– يقول: " والنجم ". النبات الذى ينجم من الأرض، لا ساق له، كالبقول، و(الشجر): الذى له ساق.. ويذكر أن الله – تعالي – قد جمع بينهما على طريقة التعاطف، للتناسب والتقارب، والتقابل، وأنهما أرضيان، يخرجان من أصل واحد، فهو ينتصر لصدق اللفظ في دلالته إلى معناه المتوافق عليه. (٣)

– ويعلل الزمخشري للفظ على ضوء من معناه ونطقه، الذى أُشتهر به في جماعته اللغوية، من ذلك إقراره للفظ الحبأ، كما في بيته اللغوية، التي آثرت التخفيف في معظم صوره، فيقول: فقرئ: الخبَّ على تخفيف الهمزة بالحذف، والخبا على تخفيفها بالقلب.. ووجهها أن تخرج على لغة من يقول: هذا الخبُو. ورأيت الخبا، ومررت بالخبى.. ثن يردُّ الألفاظ التي لا تناسب مجتمعًا لغويًّا ما، كما في قولهم: الحماة والكماة، لأنها ضعيفة مسترذلة. (٤)

– من أجل ذلك نراه يتطرق – عن قصد – إلى العلاقة بين الصيغ الصرفية، وما تحمله كل صيغة من معني يُغاير أصل المادة المعجمية المجردة، يقترب

(١) انظر: الكشاف: (مرجع سابق) ٤: ٣٦٣

(٢) سورة الرحمن: ٦

(٣) انظر: الكشاف: (مرجع سابق) ٤: ٣٨٠

(٤) انظر: الكشاف ٣: ٣٢٠

كثيرًا، أو يبتعد قليلًا، بدا ذلك عند تناول الزمخشري، في تفسيره لقوله – تعالي: " ويلُ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ". (١)

– يقول الزمخشري: " وبناء فُعلة يدلُّ على أن ذلك عادة منه قد ضرى بها، ونحوهما اللُّعَنَةَ والضُّحَكَة، قال: وإن أُغَيَّبْ فأنت الهامزُ اللُّمَزَة.. ويُقال: لمزه ولهزه: طعنه. والمراد: الكسرُ من أعراض الناس، والغضُّ منهم، واغتيابهم، والطعن فيهم. ثم يقول: قرئ: " ويلُ لكلِّ همْزةٍ لُمْزةٍ، على فُعْلة؛ بسكون الميم من لُمْزة، هو: المسخرة الذى يأتى بالأوابد والأضاحيك، فيُضحك منه ويُشتم. (٢)

*** اللفظ والمعنى والسياق:**

لقد كان لعلماء التفسير – ومنهم الزمخشري – فضل السبق في الكشف عن أثر السياق في تحديد معاني الآيات، خاصة عند الافتقار إلى قرائن أخرى مقيِّدة للقصد، معتبرة في فهم المراد، بل كان للسياق الدور الحاسم في الفصل بين الكثير من الأقوال المحتملة في التفسير ".(٣)

لأن السياق يُعد جزءًا، لا يُمكن إغفاله في تحليل الخطاب اللغوي ودراسته؛ وذلك لأن الكتابة –في كثير من الأحيان – لا تُصوِّر حالة المسرح اللغوي، تصويرًا دقيقًا، والكلام لابد أن يُدرسَ في إطار مسرحه؛ لأن الكلام –في هذا الوضع – يعيش في بيئته الحقيقية، التي تُعين الباحث على فهمه وعلى درسه، والمسرح اللغوي هو مقام الكلام؛ والمقام ليس مجرد مكان يُلقى فيه الكلام.إنما هو إطار اجتماعي ذو عناصر متكاملة؛ آخذٌ بعضها بحجز المعني.(٤)

و من ذلك ما ذهب إليه الزمخشري – حين تعددت الضمائر في سياق واحد – وتسمح الاحتمالات الدلالية بقبول تفسيرات عدة، جميعها له وجه، كما في

(١) سورة الهُمزة: ١

(٢) انظر: الكشاف ٤: ٦٨٣

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٦: ١١١

(٤)انظر: دراسة في قواعد النحو العربي، في ضوء علم اللغة الحديث، د: حازم على كمال الدين، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧م: ٩٥ – ٩٦

قوله – تعالي: " وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما اذكرنى عند ربك فلبث في السجن بضع سنين ".([1])

فقال: إن الضمير في قوله – تعالي: " فأنساه ". و" ربّه ". يعود إلى ساقى الملك، ويكون المعني: أنسى الشيطانُ الساقِى أن يذكر قصة يوسف للملك، ولهذا لبث يوسف في السجن بضع سنين.

و في هذا السياق يقول الزمخشري: " الظان هو يوسف – إن كان تأويله بطريق الاجتهاد – وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي؛ أو يكون الظن بمعني اليقين، فقد طلب يوسف من الشرابي أن يصفه عند الملك بصفته، وأن يقصَّ عليه قصته؛ لعله يرحمه، ويخرجه من هذه الورطة، فأنسى الشرابي ذكر ربه أو أن يذكره ربه.([2])

و يؤيد سياق الآية هذا الرأي؛ لأن الاتفاق قائم على أن الضمير في قوله: " عند ربك ". يرجع إلى الساقي، فكان المناسب بدلالة السياق أن يكون ما بعده " فأنساه الشيطان ذكر ربه ". عائدًا على الساقي، حتى لا تتفرق الضمائر؛ إذ الأصل – عند المحققين – عدم تشتيت مرجع الضمائر، وإلَّا أدى ذلك – كما يقول الزمخشري – إلى تنافر النظم، الذى هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذى وقع عليه التحدى ". ([3])

و أحيانًا يُمايز الزمخشري بين دلالة عناصر لغوية عن أخرى، وأن اختلاف الشكل في التركيب اللغوي يتبعه بعدٌ دلالى أخر، فقد يُشير المفرد إلى معنى ما، فيأتى المثنى والجمع ليحمل نكتة بلاغية، وتثبيتًا للمعني، جاء في الكشاف، في قوله – تعالي – على لسان المتطاولين على الله: " يد الله مغلولة ". ([4]) يقول الزمخشري: " فإن قلتَ: " لم ثُنِّيت اليد في قوله – تعالي: " بل يداه مبسوطتان". وهى مفردة في: " يد الله مغلولة ". ؟.

---

(١) سورة يوسف – عليه السلام: ٤٥

(٢) انظر: الكشاف ٢: ٣٢٥ وما بعدها.

(٣) الكشاف ٤: ١٤١

(٤) سورة المائدة: ٦٤

قلتُ: ليكون ردٌّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدلَّ على إثبات غاية السخاء له، ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبذله السخىُّ بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعًا، فبنى المجاز على ذلك. (١)

اللفظ والمعني والقصدية النصيَّة:

و قد تناول عبد القاهر الجرجاني القصدية النصية بحديث مفصَّل، تحدث فيه عن خلو الألفاظ – حال انعزالها – من المعاني، فهى لا تُفيد؛ حتى تألّف ضربًا من التأليف، ويُقصد إلى ترتيبها على وجه من دون وجه ، ويعظّم عبد القاهر الجرجاني من أثر الترتيب وحُسنه في التعبير عن القصد.

و للنص – عند عبد القاهر الجرجاني– قصدان، أحدهما: يُدرك من البنية السطحية له، ويستوى فيه جميع المخاطبين؛ والآخر: يحتاج إلى فطنة وطول تأمل، وهو لمتلقٍّ مقصود؛ يستطيع إدراك معنى المعنى، أو البنية العميقة، وهو قصد المؤلّف.

يقول: " ويُتوصَّل إلى القصد بصورتين؛ الأولى: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده؛ وذلك إذا قصدت أن تُخبر عن زيدٍ مثلًا بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد.. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده؛ ولكن يدلك اللفظ على معناه، الذى يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية؛ تصل بها إلى الغرض.(٢)

و لمعنى المعنى هيئة من الألفاظ والمعاني وقِيَمٌ فنية، يسوقها المؤلف لمتلقيه، يستحثه على المتابعة والاستمرارية، في كشف قصده وتقبله، والتحول من القبول إلى التفسير؛ يقول: " فاعلم أنهم يصفون كلامًا قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى؛ فكنَّى وعرَّض، ومثَّل واستعار، ثم أحسن في ذلك كلّه وأصاب، ووضع كل شىء في موضعه، وأصاب به شاكلته؛ وعمد

(١) انظر: الكشاف ١: ٥٧٧

(٢) يقول: المعنى ومعنى المعنى، وتعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ؛ والذى تصل إليه بغير واسطة، ومعنى المعنى؛ أن تعقل من اللفظ معنى؛ ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر.. انظر: دلائل الإعجاز: ٢٦٢ وما بعدها

فيما كنَّى به وشبَّه ومثَّل؛ ليس هو اللفظ المنطوق به، ولكن معنى اللفظ الذى دللت به على المعنى الثاني.(١)

ويتابع الزمخشري تلك الفكرة في كتابه: الكشَّاف، حين يجعل معانى الألفاظ حاملة للقصد، لأنه سابق عليها، ولا نستطيع البحث عن معنى \ قصد خارج العلامات، إذ إننا نفكر بالكلمات، وعدَّ الزمخشري القصد أمرًا موجَّهًا من قِبل مؤلف إلى متلقٍ مقصود، وأن على المتلقي أن يجاوز ظاهر الألفاظ وصولًا إلى البنية العميقة؛ حتى يصل إلى ما يرومه المؤلف من قصد، وقد أبان عن ذلك في معرض تفسيره لقوله – تعالي: " قال معاذ الله أن نأخذ إلَّا من وجدنا متاعنا عنده.. ".(٢)

يقول: " وقوله – تعالي: " معاذ الله ". كلامٌ موجَّه، له ظاهر وباطن؛ ظاهره أنه وجب على قضية فتْوَاكُم أخذُ من وُجد الصُّواع في رحله، واستعباده؛ فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبكم، فلِمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ؟. وباطنه: أن الله – تعالي – أمرنى، وأوحى إلىَّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة، أو لمصالح جمة، وعلمها في ذلك، فلو أخذت غير ما أمرنى بأخذه؛ كنت ظالمًا، وعاملًا على خلاف الوحى ".(٣)

اللفظ وتوسيع الدلالة:

و يذكر الزمخشري لغات غير اللغة اللفظية، مما يسميه المحدثون: لغة الجسد، تلك اللغة التي تُوصف بالصدق، وبالقدرة على التعبير عن المعنى بدقة، كما ذكر أن اللفظ قد تتسع دلالته باستعماله في إشارة معينة، انظر إلى استخدامه لفظ اللسان بمعنى الرسالة، يقول –في معرض تناوله لقوله – تعالي: " وجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ". (٤) وقوله – تعالي: " واجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٣– ٢٦٥

(٢) سورة يوسف – عليه السلام: ٧٩

(٣) الكشاف ٢: ٣٤٤

(٤) سورة مريم: ٥٠

في الْآخِرِينَ ". (١) -: " ولسان الصدق الثناء الحسن، وعبَّر باللسان عما يوجد في اللسان، وعبَّر باليد عما يطلق باليد، وهى العطية. قال: إنى أتتنى لسانٌ لا أسرُّ بها. يريد: الرسالة، ولسان العرب لغتهم وكلامهم.(٢)

و من المفيد الإشارة إلى أن الزمخشري قد فرَّق بين الألفاظ من حيث القوة والضعف، وأن قوة اللفظ تعمد على الإحاطة الدلالية المقبولة، فقد يحمل اللفظ معاني جميعها مقبولة، وتؤيدها الدلالة السياقية للألفاظ، من ذلك إشارته إلى أن لفظ (فضحت) من قوله – تعالي: " وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ". (٣)

يذكر الزمخشري عدة معانى لهذه الفظة، فمنها: إنها ضحكت سرورًا بزوال أهل الخيفة، أو بهلاك أهل الخبائث، أو كان ضحكها ضحكَ إنكارٍ؛ لغفلتهم، وقد أظلَّهم العذاب، وقيل: كانت تقول لإبراهيم: اضمُمْ لوطًا ابنَ أخيك إليك؛ فإنى أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذابٌ، فضحكت سرورًا لَمَّا أتى الأمر على ما توهمت، وقيل: فضحكت، أى: فحاضت، بدليل قوله: (فبشرناها)، فهو يُقارب بين الألفاظ وما تُشير إليه من معانٍ، ليقرر أمكانية أن يحمل اللفظ أكثر من معنى مقبولٍ. (٤)

اللفظ المعرَّب ودلالته على معناه:

و ليس عجيبًا من الزمخشري تلك القدرة التحليلية والتأصيلية لعدد من ألفاظ القرآن الكريم؛ فنراه يحاول إيجاد جذر لغوي، مقربًا لمعناه في لغتنا العربية، فيقول في كلمة (إدريس) من قوله – تعالي: " واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقًا نبيًّا ". (٥)

---

(١) سورة الشعراء: ٨٤

(٢) ذكر ذلك في معرض تناوله لقوله: " تعالي " وأعتزلكم ". و" قوله – تعالي: " عسى ألَّا أكون بدعاء ربى شقيًّا ". سورة مريم: ٤٨. انظر: الكشاف (مرجع سابق) ٣: ٢٣

(٣) سورة هود: ٧١

(٤) انظر: الكشاف ٢: ٢٧٤

(٥)سورة مريم: ٥٦

" وقيل: سُمى إدريس؛ لكثرة دراسته كتاب الله – عز وجل – وكان اسمه أخنوخ، وهو غير صحيح؛ لأنه لو كان إفعيلًا من الدرس؛ لم يكن فيه إلا سبب واحد، وهو العلمية؛ فكان منصرفًا، فامتناعه من الصرف دليل العجمة، وكذلك إبليس أعجميٌّ، وليس من الإبلاس، كما يزعمون، ولا يعقوب من العِقب، ولا إسرائيل بإسرال، كما زعم ابن السكيت، ومن لم يحقق، ولم يتدرب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات، ويجوز أن يكون معنى إدريس – في تلك اللغة – قريبًا من ذلك، فحسبه الراوي مشتقًّا من الدرس. (١)

و يُنكر الزمخشري القول بأعجمية بعض الألفاظ التي تخضع لقواعد اللغة العربية، وهى معرَّبة مشهورة؛ لذا فهو يقول بصرف كلمة (استبرق) من قوله – تعالي: " وحُلُّوا فيها ما أساور من ذهب ". (٢) يقول: و(استبرق) نصبًا في موضع الجر، على منع الصرف؛ لأنه أعجميٌّ، وهو غلط، لأنه نكرةٌ يدخله حرف التعريف، تقول الإستبرق، إلَّا أن ابن محيصن يزعم أنه قد يُجعل هذا الباب علمًا لهذا الضريب من الثياب.

ثم يعود فيقول: " وقرىء: (و استبرق) بوصل الهمزة والفتح؛ على أنه مسمَّى باستفعل من البريق، وليس بصحيح أيضًا؛ لأنه معرب مشهور تعريبه، وأن أصله: استبره. (٣)

بيد إنه يميل إلى القول بتعريبه، لأمرين:

١- دخول (ال) التعريفية عليه.

٢- إيراد دلالته المعجمية، فيقول: " السندس: وهو ما رقَّ من الثياب، والإستبرق: وهو الغليظ منه، وقد أوردهما الخطاب القرآني جمعًا بين النوعين. (٤)

و يدلل على رأيه بأن ما عُرِّب خرج عن العجمة، يقول: " قيل: السندس: مارقٌ من الديباج. والإستبرق: ما غُلِّظ منه. وهو تعريب: (استبر)؛ فإن قلتَ: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربيِّ المبين لفظٌ أعجميٌّ ؟.

---

(١) الكشاف (مرجع سابق) ٣: ٢٤

(٢) سورة الإنسان: ٢١

(٣) الكشاف ٤: ٥٧٥

(٤) انظر: الكشاف ٢: ٥٣٢

قلت: " إذا عُرِّب خرج من أن يكون عجمًا؛ لأن معنى التعريب: إن يُجعل عربيًّا بالتصرف فيه، وتغييره عن مناهجه، وإجرائه على أوجه الإعراب. (١)

رابعًا: الخاتمة، وفيها:

- **أهم النتائج:**

- بدت أبعاد العلاقة بين اللفظ والمعنى واضحة في ذهن الزمخشري.

- انتقل الزمخشري بتلك العلاقة إلى مجاوزة الكلمة والجملة، بل وضعها في إطار النص والسياق، وقرَّب للمتلقي المعاني البعيدة بالقرائن السياقية أو النفسية.

يعد اللفظ والمعنى عند الزمخشري تجسيدًا لحالة نفسية للمؤلف أو المتلقي أو كليهما معًا.

أهم التوصيات:

- دراسة الأبعاد النصية في كشاف الزمخشري أو في بلاغته.

- تأصيل دراسة البعد النفسى للغة في دراسات القدماء، ومنهم الزمخشري.

- أخيرًا: أقدم هذا البحث لقراء التراث العربي الزاخر، راجيًا استدعاءه للتنظير مع الطروح اللسانية والثقافية الوافدة، انطلاقًا من حتمية الاحتكاك؛ وبعيدًا عن سلبيات المواجهة الفكرية، واستثمارًا لمعطيات تراثنا بمختلف تخصصاته.

- والبحث إسهامة في درس العربية، عسى الله أن ينفع به، والقارئ له مرآة صادقة، يُعمل فكره وقلمه في كل ما يقرأ، والله – تعالي – هو حسبى، وهو نعم المولى، ونعم الموفق.

- **الباحث د: حمدى على بدوى أحمد**

(١) انظر: الكشاف ٤: ٢٤٧

المصادر والمراجع

* ائتلاف اللفظ والمعني إعجاز آخر للقرآن الكريم، تـأليف: بشـير ذو العلـى درويش، باحث إيراني، مجلة ديوان العرب: (منبر حـر للثقافـة والفكـر والأدب) بحث بشبكة المعلومات.
* أساس البلاغة، للزمخشري، (د. ط) الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مايو ٢٠٠٣م.
* الإعجاز الفنى في القرآن الكريم، لعمر السلامى، (د. ط) مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٠م.
* إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د: حنفي محمـد شـرف، (د. ط)، المجلس الأعلي للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م.
* البحر المحيط في التفسير، لأبى حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الـدين الأندلسى، المتوفي ٧٤٥هـ، تحقيق: صـدقى محمـد جميـل، (د. ط) دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ /٢٠١٠م.
* البداية والنهاية، لابن كثير (ذكر شىء من أخبار نـوح – عليـه السـلام، تحقيق: عماد زكى البـارودي وآخـرين، (د. ط) دار التوفيقيـة للتـراث، القاهرة، ٢٠١١م،
* بلاغة الخطاب وعلم النص، د: صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٦٤، الكويت صفر ١٤١٣هـ / أغسطس ١٩٩٢م.
* البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د: محمد أبو موسـي، ط٢، مكتبـة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨ هـ. Diwan alarab.com
* البيان والتبيين، لأبى عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: ناصر محمدي محمـد جاد، طذ، طبعة القدس، القاهرة، ٢٠١٣م.
* تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الزمخشري) للأسـتاذ محب الدين أفندي، (د. ط) شركة مكتبة مصطفي البـابى الحلبـي وأولاده ومطبعته، القاهرة، (د. ت).
* جامع البيان عن تأويل آى القرآن، تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر، ومراجعة أحمد محمد شـاكر، ط٢، دار المعارف المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.

* حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، د: سمير أحمد معلوف، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦م.
* الخصائص، لابن جنى، تحقيق: محمد على النجار، ط٢، دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان، (د. ت).
* دراسة الصوت اللغوي، د: أحمد مختار عمر، ط٣، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٥م.
* دراسة في قواعد النحو العربي، في ضوء علم اللغة الحديث، د: حازم على كمال الدين، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧م.
* دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د: محمد عبد المنعم خفاجى، (د. ط) مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٨٠ م.
* دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود شاكر، ط٢، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٩م.
* دلالة الألفاظ، د: إبراهيم أنيس، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م.
* ديوان الإمام الشافعى، حبر الأمة محمد بن إدريس (ت ٨٢٠ هـ) جمعه الأستاذ: نعيم زرزور، قدم له، د: مفيد قميحة، (د. ط) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د. ت).
* ديوان الشافعى، (ط: دار المنار)، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
* ديوان مالك الأشتر، جمع وشرح وتحقيق: قيس العطار، (ط !)، ١٩٩٠م
* رى الظمآن في بيان القرآن، تأليف: فهد بن عبد الله الحزمي، نسخة مضغوطة على شبكة المعلومات الدولية www.saaid.net، علوم القرآن الكريم.
* سياق الحال في الدرس الدلالي، د: فريد عوض حيدر، (د. ط) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
* شرح العقيدة الواسطية، لمحمد بن خليل بن هراس، (د. ط) دار ا بن عفان، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م
* شرح المفصل لابن يعيش، (د. ط) عالم الكتب، بيروت، (د. ت).

* كتاب شرح شعراء الغدير في القرن الثامن، للعلامة الأميني، ١٥ – ٦٧ www. mezan. net , ahoulbayt, html،
* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الزمخشري: جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد مرسي عامر، القاهرة، دار المصحف، ط٢، ١٩٧٧م
* الكشاف، جار الله الزمخشري، تحقيق: يوسف الحمادي، ط١،مكتبة مصر، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م.
* لسان العرب، لابن منظور، (د. ط) دار صادر، بيروت، (د. ت).
* اللغة العربية معناها ومبناها، د: تمام حسَّان، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥ م.
* المفصل في علم العربية، للزمخشري، (د. ط) المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٨م. ومطبعة التقدم، القاهرة، ١٣٢٣هـ.
* مفهوم اللغة عند البنيويين، د: إحسان عبد القدوس، صحيفة دار العلوم، العدد (٣٦)، رجب ١٤٣١هـ /يوليه ٢٠١٠م
* المناسبة اللفظية في القرآن الكريم، د: حازم على كمال الدين، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٧م.
* نظرية النقد العربي (رؤية قرآنية معاصرة)، د: محمد حسن على الصغير، ط دار المؤرِّخ العربي، بيروت، لبنان، (د. ت).
* نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثرى)، د: حسام أحمد فرج، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م.
– نظرية نحو النص في التراث اللغوى العربى (دراسة تأصيلية)، د: حمدى على بدوى، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، سوهاج، غير منشورة، ٢٠١١م.
– نهج البلاغة، للإمام على – رضى الله عنه.